جذور تستمد فلسفتها، من براعة الاستمرارية التي مارسها الدروز، طوال الألف عام الماضية. أصلاً، هناك شكوك بأن يكون هذا المزاج، في دواخله، كما صوّرته ماكينات الحزب التقدمي الاشتراكي الإعلامية والمناطقية في السنوات الماضية. ثم إن الحريري لا وجه «آخر» له، فيما يملك الجنبلاطيون فرصة المصالحة مع سوريا، بورقة غير «محروقة» اسمها تيمور جنبلاط. هذا ليس ترفاً، بل منطق التاريخ والجغرافيا، وبرّ الشام الآمن، هو «العمق العربي» الوحيد الباقي.

مقالة

عملاء وخونة... وأعداء

محمد نزال

لا يوجد خونة في لبنان. لا يوجد خونة في العالم. لا وجود لمفهوم الخيانة أصلاً. هذا ما تحاول بعض «النُخَب» السياسيّة والثقافيّة والإعلاميّة التأصيل له، كقيمة أخلاقيّة بديلة، في بلادنا. الحديث، هنا، عن «الخيانة الوطنيّة»، أو الجماعيّة بمعنى أوسع، لا تلك الفرديّة التي تعني «العشّاق». الخائن، العميل، الجاسوس، لو استطاعوا لشطبوا هذه الكلمات مِن قاموس اللغة. مِن سوء حظّهم أنّ ما مِن لغة، منقرضة أو حيّة، عند كلّ الأمم، إلا واتسع وعاؤها لتلك المعاني. لسان العرب، الكتاب، أفرد للخيانة «مسألة». يزداد سوء حظّهم أنّ التاريخ أسقط تلك المعاني على أفراد بعينهم، طبعهم بها، إلى الأبد، منذ ما قبل «بروتوس». منذ قرون والعرب يَرجمون «أبي رغال» في الصحراء، الخائن، على أنّه «الشيطان». أصبحت «البيتانيّة» في العصر الحديث سُبّة في فرنسا. أصبح الماريشال فيليب بيتان رمز الخيانة بعد الحرب العالميّة الثانية بعدما كان، في الحرب العالميّة الأولى، بطل «فردان» في وجه الألمان. كثيرون مِن الفرنسيين دافعوا عن بيتان، وحاولوا بكلّ ما أوتوا مِن قوّة إبعاد تُهمة الخيانة عنه، بل إبعاد «مبدأ التخوين» أساساً، بحجّة «الظروف» الحاكمة، إذ كانت «المسلّة تنعرهم»... لكن في النهاية أصدر التاريخ حكمه.

بالمناسبة، تلك «النُخَب» اللبنانيّة المُحدّدة، وبعد تأمّل خطابهم، نجدهم ليسوا ضدّ «التخوين» كمعنى، بل ضدّه كلفظة، إذ هم يُمارسونه ليل نهار ضدّ خصومهم. يتّهمون الآخر بأنّه «ورقة» في يد إيران، مثلاً، وأنّه «صاحب مشروع» يَعمل لمصلحة الخارج ضدّ الداخل، لكن عندما يخرج عليهم مَن يُبادلهم «التُهمة» نفسها، مع فارق استخدامه مصطلحات تاريخيّة واضحة، لا تحتمل أيّ تأويل، مثل خيانة أو عمالة، فعندها تقوم قيامتهم. يبدأون، في مظهر يستدعي الشفقة، بالتظلّم والولولة والتفجّع. إنّهم يُجيدون لعب هذا الدور. إنّهم يستفيدون مِن «شيطنة» مفردة العميل، التي أصبحت كذلك على نطاق واسع، حقيقة، بفعل الإفراط بها مِن قبل الأنظمة العربيّة على مدى العقود الماضية. صحيح، كثيرون ظُلِموا بها، لكنّها لم تكن دائماً ظالمة. تلك «النُخَب» حاولت وتُحاول الاستفادة مِن تلك السقطات، وقد عوّموها، للوصول إلى شطب مفهوم العمالة مِن أصله. كم كانت «التكنولوجيا» الحديثة مُسّمة لهؤلاء، إذ عاشوا في زمن «ويكيليكس» وأخواتها، فقرأ العالم كلّه عمالتهم الواضحة الصريحة المباشرة. لهؤلاء أن تمتلئ قلوبهم غيظاً مِن أمثال جوليان أسانج. لقد وجدنا عمالتهم على شكل وثائق دبلوماسيّة رسميّة مُسرّبه، مؤرّخة، ومتى؟ في أصعب ظرف يُمكن أن يَعيشه شعب. في أيّام تمّوز، مثلاً، حين كانت تغير الطائرات الإسرائيليّة على عظام الأطفال بينما هم، في الساعة نفسها، في اللحظة نفسها، يَجلسون في مكاتب السفارات ويَطلبون «المزيد مِن القتل». أمّا إفشاء أسرار الدولة، إن كان مِن أسرار، فهذه تحصيل حاصل. هؤلاء أنفسهم يُمثّلون أنّ كلمة عميل تُغضبهم وتُفقدهم صوابهم! مرّة أخرى، إنّهم بارعون في التمثيل، وهذا يُسجّلهم لهم. الطرف الآخر لا يُجيد ذلك. وبالمناسبة، هذا ليس مدحاً للطرف الآخر. إنّه طرف لا يُجيد لعبة الإعلام، أدواته مختلفة، بل قبل ذلك، وهذا الأهم، ذهنيّته مختلفة. لهذا أسباب كثيرة ليس هنا مكان بحثها.

مسألة أخرى، ليست بالضرورة كلّ عمالة خيانة. أن تَعمل لمصلحة دولة خارجيّة ضدّ شعب أنت، لسببٍ ما، محسوب عليه، أو تَعمل حتّى لمصلحة العدوّ مباشرةً، فهذه ليست بالضرورة خيانة. ربّما لم تجمعك بمن تَعمل ضدّه، الآن، أيّ رابطة في السابق. أمّا أن تخون فيعني أنّك توافقت مع الآخر على عهد ما ثمّ خرجت مِنه، بإرادتك، أذيّة له. هل يوجد في لبنان خونة بهذا المعنى؟ مَن هم ضدّ «محور المقاومة» مثلاً، كسمير جعجع، هل كانوا يوماً مع هذا المحور حتى يُقال خونة؟ هناك خونة بهذا المعنى، صحيح، نعرفهم جيّداً، ولكن ليس كلّهم كذلك. إنّهم «أعداء». هكذا نكون تصالحنا مع اللغة أولاً. بالمناسبة، هؤلاء ينظرون إلى الطرف الآخر، الذي يعيش معهم، كعدوّ أيضاً. العداوة هي الحاكمة في بلادنا، في العمق، إنّما ولأسباب قهريّة، واقعيّة، يُستفاد مِن اللغة لخلق توصيفات تُساعد على هدنة، بفعل موازين القوة الراهنة، فيستمر ذلك إلى حين حصول تغيّرات كبرى ليثب عندها هذا بسيفه على ذاك. هكذا تدور أيّامنا. يُمكن التعايش مع هذا التكاذب الجميل، صحيح، ولكن، في مطلق الأحوال، لا ينبغي لهذا أن يُنسينا الواقع القبيح. الكلّ يتّهم الكلّ في لبنان. الكلّ يَستبطن عداوة بنسبة ما. الكلّ عميل بالنسبة إلى الآخر. الفارق أن هناك مَن يَنوح كالثكلى، أو كصبي أُخِذت لعبته، فيما يبلعها الطرف الآخر متفرّغاً لـ«مشروعه». ثمة فارق آخر، إذ أن هناك مَن ينطق بها بمصطلحات نخبويّة حديثة، بينما ينطق بها آخرون بمصطلحات أصيلة، فجّة، مباشرة، واضحة... فطوبى للواضحين.

...بها

حصل في مهرجان الأرز، أو الزيارة التي قام بها الوزير جبران باسيل لزحلة)، وتارة أخرى في الترشيحات (حين طرحت القوات مرشحاً لها في البترون وجبيل)، وما بينهما من مناوشات حكومية ونيابية حول أكثر من ملف، بدءاً بقانون الانتخابات مروراً بالتعيينات وصولاً إلى ملف الكهرباء.

تضع معراب نفسها في موقع المعتدى عليه، إذ إن «التحالف الذي تمّ التوصّل اليه مع الرابية ضمّ اتفاقاً ضمنياً بأن نكون شركاء في كل شيء: المقاعد النيابية، التعيينات، الحقائب الوزارية...»، لكنها فوجئت أولاً «ببدعة ما يُسمى حصة الرئيس تحت عنوان تعزيز دور الرئاسة وحصتها». لكنها في الحقيقة «كانت نوعاً من وضع اليد على حصة القوات». وفي التعيينات «نكث العونيون بوعدهم بإعطاء القوات حقيبة سيادية»، حتى إنهم «لم يأخذوا برأي القوات في التعيينات، كما حصل مثلاً أثناء تعيين مدير لهيئة أوجيرو». وفوجئ القواتيون، ثانياً، «بتجاوز القوات داخل مجلس الوزراء بشأن الآلية واتخاذ القرارات المتعلقة بملفات كبيرة»؛ فالتيار «غالباً ما ينطلق من مقاربة ذاتية، يطغى فيها أسلوب الاستئثار، كما ظهر في ملف الكهرباء وإدارة تلفزيون لبنان ومستشفى البوار الحكومي». وثالثاً بـ«محاولة استبعادهم عن مفاوضات القانون الانتخابي، قبل دخول القوات بقوة عبر النائب جورج عدوان، وهو أمر لم يستسِغه العونيون».

ببساطة، يؤكد عارفو معراب ومقرّبون منها أن «المأخذ الأساسي يتعلق بعدم احترام الشراكة»، و«عدم احترام مبدأ الشفافية والآليات القانونية». والأهم أن «التيار يعتبر نفسه فوق الشبهات، وأصبح الهمّ عنده تحقيق المكاسب والتعاطي بأحادية لا علاقة لها لا بالتغيير ولا بالإصلاح». لذا «نرى عدم اتفاق على ممارسة السلطة، وكذلك الأداء الحكومي». برأي القواتيين، «ما يحصل الآن حصل سابقاً داخل 14 آذار، وكان ذلك خلافاً أساسياً مع تيار المستقبل الذي تدخل السلطة والسيطرة عليها ضمن أولوياته».

> **مأخذ القوات يتعلّق بعدم احترام الشراكة معها**

الأكيد، بالنسبة إلى القوات، «لن يؤدي ذلك إلى كسر العلاقة التي حققت أهدافها الاستراتيجية، أي انتخابات رئاسية وقانون انتخابات»، ومن ثم «تحقيق الشراكة الإسلامية – المسيحية التي لا يُمكن أن تحصل من دون تحالف مسيحي قوي». أما ما دون ذلك فليس إلا «خلافاً في التكتيك السياسي». وفي هذا الملعب تسعى القوات إلى أن تكون حالة مستقلّة. فهي «ستستمر في معركتها داخل مجلس الوزراء ضد كل ما تعتبره غير قانوني». وفي ما يتعلّق بالانتخابات «ستخوضها منفردة حيث ترى لها مصلحة في ذلك»، كما أنها «لن تتوقف عن التصويب على كل التجاوزات الإدارية والنيابية». أمس، كانت لافتة استضافة قناة «أو تي في» المعارض القواتي حنّا العتيق. وهي المرة الأولى، منذ اتفاق معراب، تطل على التلفزيون العوني شخصية تستفزّ القواتيين. لا شكّ في أنها إشارة سلبية جديدة، اعتبرتها القوات «نوعاً من العدائية»، لكنها لن تلجأ إلى الأسلوب ذاته، فهي «لم تقصُد الاستفزاز حين سمّت مرشحين في عدد المناطق»، وتعتبر ذلك «حقاً لها». كذلك لن تردّ على هذه الإطلالة «بإجراء مقابلات مثلاً مع معارضين عونيين وهم كثر». لكنها في المحصلة ترى أن «خسارتها من الاتفاق مع العونيين، والذي تعتبره صفقة العمر على المستوى السياسي والمسيحي، فاقت الربح».

انتقل الى رحمته تعالى المرحوم

حسين محمد الحاج خليل عبد الله

زوجته: عفاف مرتضى الحر

أبناؤه: علي، طارق وأحمد

ابنته: نسرين زوجة الصحافي ابراهيم الامين

أشقاؤه: المرحومون علي، حسن وعبد الغني

شقيقاته: سنية زوجة محمد أمين التنوخي، فضة

المرحومات: زينب، سعدى، مريم، رقية، عبدة الزهراء وثريا

ووري الثرى في بلدته الخيام أمس. تقبل التعازي اليوم في منزل شقيقه المرحوم الحاج حسن محمد الحاج خليل عبد الله (ابو خليل) في الخيام. ويومي الجمعة والسبت للرجال والنساء في منزل الفقيد في صيدا ـ الصّباغ، قرب مقبرة الإنكليز، بناية الجبيلي. ولمناسبة مرور أسبوع يقام مجلس عزاء عن روحه في حسينية الخيام العاشرة قبل ظهر الأحد. كما تقبل التعازي في بيروت يوم الاثنين في السابع من آب الجاري، بين الثالثة والسابعة مساء، في مركز جمعية التخصص والتوجيه العلمي، الرملة البيضا، قرب مركز أمن الدولة.

الآسفون: آل عبدالله، آل الحر، آل الأمين وعموم أهالي الخيام